من المجموعة القَصَصيَّة «أطفال تحت خطِّ النَّار»

أيَــادِ صَغِيرَةَ

قصة قصيرة

د. محمد عبد اللطيف

أيادٍ صغيرة

قصَّة قصيرة، من السلسلة القصصِيَّة «أطفال تحت خطِّ النار»

د. محمد عبد اللطيف

رابطة الأقلام الشابة

مساحة ١٤.٨ × ٢١ سم

عدد الصفحات: ٢٠ صفحة

رقم الإيداع: ١١٠١/ ١٤٤٢/ ٩/ ٢٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل والاقتراحات

mo.a.latif@yandex.com

أيَـادٍ صغيرة

شمسٌ ساطعة حدَّ الإحراق في كبِدِ السماء، أرسلَت لهيبَها على أرضٍ طالَ جَدْبُها، قد تشقَّقَ سطحُها، وارتَسَمَتْ على وجهها أخاديدُ تروي قصةَ الفاقَةِ والعِوَز، شمسٌ تخنق الأنفاسَ في الصدور، وأرضٌ تئِدُ أحلَام الرِّيِّ في العروق.. لم تكُن تلك هيَ الأرض التي خطَّتْ عليها أقدامُنا الصغيرة، نتقافز عليها كما الخرانق السارحة في حدائقها، فيُدَغْدِغ العشبُ الغَضُّ بواطنَ أقدامنا الحافية، فنُتْبِعُ البسمةَ أُخرى، وتخرج من ثغورنا ضحكات نقِيَّة تملأ الفراغ، فتضحك لأجلنا الكائنات، لم تكن الدنيا سوى فرحٌ ومرح، لهو ولعب وسرور، لم تكن الدنيا في عقولنا قطُّ، كانت في قلوبنا الصغيرة فقط..

الآن تتشابك أيادينا، لستُ سوى ابنِ تِسْعٍ، وليسَت سِوى دون الخمس، تكاد يدِي على صِغَرِها تعتصر يدَها على دِقَّتِها، وكأنَّني أخشى يومًا تحُولُ فيه الشمسُ التي استحالَ بريقُها لهيبًا، والأرضُ التي أمسى خصْبُها جدْبًا، بيننا، أخشى أنْ تضربَ عواديَ الزمَن على أيادينا الصغيرة

بمطرقتها، فنفترق، وليس لي إلَّاهَا، وليس لها سِوَاي..

غير بعيد نَهَرَني والدي حينما قسوتُ عليها؛ لأنَّها لم تستَجِب لي حين دعَوْتُها للَّعب، وأخبرني أنَّني سأكون لها الظَّهر والساعد، العقل والقلب، سأكون دارها الذي تلوذ به حين تطلب الأمن، سأكون لها جميع ذلك عندما يأتي الوقت الذي لا يكون موجودًا فيه.. لم أفهم حينها، كيف أكون لها بعض ذلك أو جميعه؟! ولِمَ قد لا يكون والدي موجودًا؟! أسَئِمَ منَّا فيرحل؟! أسَاءَتْهُ براءتُنا فرَغِبَ عنها؟!.. حتى أتى اليوم الذي أفهمتني قذيفةٌ هَوَتْ مِن السماء على دارنَا ما كانَ يرمي إليه.. أوَقَدْ أرسل الله على دارنا تلك القذيفة لأنني لمْ أفهمْه قبْلًا؟! قضى والداي تحت الأنقاض، ودفعا بروحيهما ثمنَ سذاجتي وبراءتي.. يا لي من غُلَيِّمٍ آثِمِ القلب!!..

والآن، أقف وكلمات أبي لا تزال تقطع عقلي غادية رائحة، أقبض على يد صغيرتي التي كانت أختي يومًا مَّا، لا تزال بعض الأتربة والغبار عالقة بخصلات شعرها الكستنائي الذي لَم يُصَفَّف منذئذ.. أنظر إليها وهي تزُمُّ شفتيها اللوزيَّتَين، لا يبدو عليها أنها تكترث لما يدور من

حولنا، ولا للحرب التي دارت رحاها في حيِّنَا فسحقت دارَنا والدور التي بجوارنا بما فيها ومَنْ فيها.. أو لعلَّ عقلها الصغير يُدْرِك ما آلت إليه أحوالنا، ولكنَّها تعرف كذلك أنَّني دارُها وملاذُها.. «**لا تخافي.. سأحميك دومًا، من كل شيء.. فقط ابقي معي**».. أتُراهَا تحتمي بي، أم أحتمي بها؟! أتلوذ بي أم ألوذُ بها؟!.. أنظر إليها مجدَّدًا، ها هي مطمئنَّة قانعة، تعانق بيُسْرَاها يميني، وتعانق بأُخْرَاها دميتَها التي نَجَتْ من أنقاض الدار، أو كادَتْ..

«**إلى أين سنذهب الآن؟**».. لو أنَّني أدري لأجبتُها.. «**سنذهب حيث يذهب الجميع**»، كانت الجموع تغادر المدينة إلى المجهول، يقطعون الطُّرُقات زرافات ووحدانًا، لا أدري إن كانوا يلوون على شيء أم أنَّهم مثلي؟! ولكنهم كبار، والكبار يعرفون دائمًا.. أنِسَتْ بنا الطُّرُقات لياليَ وأيَّامًا، تقطعها أرجلنا الصغيرة نهارًا، ونتوسَّدُ أرضَها ونلتَحف بسمائها ليلًا.. «**إنِّي جائعة**».. لم أتنبَّه إلى أنَّا لم نأكل شيئًا مذ خرجنا من تحت الأنقاض، يومٌ وليلة مضَت، لم نضع شيئًا في أجوافنا، ولم يطعِمنا أحدٌ، وكأنَّنا لسنا صِغارًا.. «**انظُري، ها هي بعض الأزهار، لنمتصَّ رحيقها كما**

النحل».. لجأتُ إلى بعض الأزهار التي على جانبي الطريق، فجمعتُ منها الكثير، إنَّها على المثل من تلك الأزهار التي كانت بفناء دارِنا، لطالمَا قطفنا منها بُغْيَةَ امتصاص رحيقها الحُلْو، ولطالمَا عاتبَتْنا أمي لأجل ذلك.. نظرتُ إليها وقد أخذت تنتقل من زهرةٍ إلى أخرى، تبتسم في قناعةٍ ورضًا، وكأنَّ الرحيق قد ملَأَ جوفَها عسلًا، أضفى حلاوةً على عينَيْها ووَجْنتَيْها وثغرِها البسَّام..

قدماي الصغيرتان تدميان، والألم يزداد شيئًا فشيئًا، ولكن ليس من أحدٍ أشكو إليه، أأشكو إليها؟! لا، لن يكون ذلك؛ فاللحظة التي أشكو إليها هي تلك اللحظة التي سأفقدها فيها، وتفقد هي دارَها وملاذها.. تشقَّقَت قدماي من طول المسير، والطريق لا تزال طويلة، وإنْ كنت لا أدري إلى أين تأخذنا، فأنا أسير حيث يسير الكبار، والكبار يعرفون دائمًا، نعم تغيَّرَت وجوههم كثيرًا، فهم دائمًا يسبقوننا ويأتي من خلفهم آخرون، ولكننا لا نزال نسير في ذات الرَّكْب.. قدماها الدقيقتان لا تزال تتقَلْقَل في خُفَّيْها، اللذيْن هما خُفَّايَ، قد آثَرْتُها بهما، ولعلِّي أؤثِرُها قلبي وروحي حينما تحتاج إليهما..

قد لا أقابل والداي مجدَّدًا، هكذا أخبرني جيراننا عندما انتشلوا أختي من تحت الأنقاض بينما كنت ألعب في الفناء قُبالة الدار.. لمْ يأذَن لنا أحد بالانتظار ريثما يخرجونهما من تحت أكوام الحجارة المتراكمة.. وددتُ لو أنِّي عصَيتهم، أَتَّخِذُ من الأطلال دارًا جديدةً، أمكث فيها مع صغيرتي؛ عسى أن يخرج أبي وأمي من تحت الأنقاض قبل أن يجِنَّ الليلُ.. ولكن جيراننا أجبرونا على الرحيل، فرحلنا؛ فالكبار يعرفون دائمًا..

في طريقنا إلى المجهول قابلنا أناسًا كُثُر قادمين من هناك، مُيَمِّمين وجوههم شطر مدينتنا المنكوبة، كانوا يحملون على عواتقهم أنواعًا كثيرة من الأسلحة، لم يكن من بينها ما يُشْبه مسدسي الذي أهداه لي أبي يومَ الأضحى.. كانت ملابسهم مهترئة رثَّة، يعلوها الغبار كما يعلونا، تبدو على وجوههم أمارات التعب والإرهاق، مثلنا، ولكن تعلو وجوههم ابتسامة مطمئِنة، وكأنَّهم يقولون لنا «**لن تُرَاعُوا.. قد مَضَتْ أيَّام الشقاء**».. وقف أحدُهم قبالتنا، ربَّتَ على رؤوسنا، وسأل عن أحوالنا مطمَئِنًّا، ثمَّ أعطانا قليلًا من الخبز اليابس، نتبلَّغ به.. شكرناه ومضَيْنا..

كانت الطائرات تَضِجُّ في السماء، لم يكن ضجيجها ليتوقف، ليلًا أو نهارًا.. وكنا نسمع من وقتٍ لآخر صوت انفجارات تصُمُّ الآذان، وكأنَّها على قَيْد ذراعٍ منَّا. كانت أوصالنا تصيبها رجفةٌ عندما تضرب تلك الأصوات مسامعنا، وكثيرًا ما أُوقِظنَا عليها فزِعِين لا ندري ما نصنَع.. لم تتمكن أختي من النوم إلَّا بعد أن تدفن في صدري الصغير رأسَها الأصغر، بينما ذراعاي تلتفُّ حولها، تقيها مما قد يفزعها حولَنا.. وكنت أنا أبقى يقِظًا أكثر الوقت، أُجِيلُ وجهيَ في الأرجاء، تدور رأسي على عنقِي الدقيق من اليمين إلى الشمال، أرصدُ الأخطار قبل اقترابها..

في ليلة داعَبَتْ نسماتُها المنعشة جفوني، فثَقُلَتْ وانسدَلَتْ على عينَيَّ، لا أدري كم من الوقت غفَوْتُ.. لمْ أغفُ هكذا مطمئِنًّا مذ فقدتُ والدَيَّ، غفوةٌ أعادتني طفلًا، حلُمْتُ فيها كما يحلم الأطفال.. تمنَّيْتُ لو أنَّها طالت بي، فلا أفيق منها إلَّا وقد جمع الله بيني وبين والديَّ وأختي في دارنا، ولكن هيهات، فإنَّ الأماني خدَّاعات، وإنَّما خُلِقَتْ سرابًا، يلهثُ خلف إحداها المرءُ دهرًا ولا يبلغها..

أفقتُ على هديرٍ عالٍ يصمُّ الآذان، سدَّدتُ نظري في كلِّ اتِّجاه عسى

أن ألحظَ مصدر هذا الصوت المرعب.. كان الظلام قد سكنَ الأرض، وألجأ النور إلى خِبْئِه، لم يكُن ثمَّ أحدٌ بالجوار، الجميع رحلوا، وتركونا وحدنَا غافِيَيْن على جانب الطريق الترابيّ المُقْفِر.. بدأت أختي في النشيج، وزاد التصاقها بي، أحسستُ أنها تريد أن تختبيء بين ضلوعي، فليس ثمَّ مكانٌ اليوم يُشْعِر بالأمان، أصبح العالم موحشًا والفضاء قاسيًا.. كان القمرُ يطلُّ بطرفه من خلف تلَّة قريبة، كان خائفًا هو الآخر، مثلنا.. وعلى بقيَّة ضوءٍ لامستْ أشعتُه قارعةَ الطريق على استحياء رأيتُ أجسامًا سوداء تقترب، كأنها الغيلان التي طالما أرَّقَتْ نومنا، ولا زالت.. ضممتُ ركبتيَّ إلي صدري؛ محاولا الابتعاد ما أمكنني عن تلك الغيلان الهادرة، وضممتُ أختي حتَّى كادت ضلوعُنا أن تتداخل، وأوشكتُ على الانتحاب أنا الآخر..

مرَّ من أمامنا أوَّل الغيلان، كان غولًا حديديًّا، تعلوه بعض الأشباح التي تشبه في ظاهرها البشَر، وتعاقبت الغيلان تمرُّ مِن أمامنا، تباينت أشكالها وأحجامها.. كان بعض من اعتلى تلك الغيلان يتضاحكون ويتسامرون وكأنَّهم ذاهبون في نُزْهةٍ، وكانت نيران سجائرهم وقدَّاحاتهم

تبدو في الظلام كأعيُن وحوشٍ أتَتْ مِن عالَم آخر.. «**أغلقي عينيك.. وسُدِّي أذُنَيْك**»، أحسستُ أنَّني في حاجةٍ إلى أن أصنعَ ذلك أكثر منها..

مرَّتْ دقائقُ كَدَهْر، ابتَعَد صوت الهدير شيئًا فشيئًا حتَّى انقطَع في ظُلْمَةٍ بعيدة، عندها أطلَّ القمَرُ بكُلِّيَّتِه، بعد أنْ كان مختبئًا خلف التلَّة، فأنار لنا الطريق وأرشدنا إلى دروب السالكين مِن قبلنا.. مضَتْ ثلاث ساعات لَمْ نَذُقْ فيها طعم نومٍ أو أمنٍ، خاب ظنِّي في الكِبار، فقد تركونا ومَضَوْا، الآن أُوقِن أنَّنا وحدنَا في تلك الدنيا، وإن تزاحمَتْ حولنا الطرقات، فما همُ إلَّا غثاء، يهيجُ وينتفش ثمَّ يعود فينزوي ويصير إلى لا شيء..

حثَّنا نور الفجر المؤذِن بقُرْب شروق الشمس على أن نتحامَلَ على أرجُلِنا التي ألانَها وقَوَّضَها الليلُ وما سبقه من نوازل شابَتْ لها رؤوس.. تلَّمسْنا طريق مَن سبقونا، كما يتلَمَّسُ تائهٌ طريقَه في ظلام ليلٍ بهيم.. تتبعنا آثار الأقدام، بعض الأحذية مرَّت من هنا وهناك، وكثير من الأقدام الحافية رسمتْ معاناة صاحبها على صفحة الطريق.. آثارُ جرِّ أمتعة هنا، و... كانت صغيرتي تقف مشدوهة، في عينيها عبَرَاتٌ توشِكُ على

المسِيل.. «**ما لكِ أجُعْتِ؟**»، أشارتْ بيدِها الصغيرة إلى جسَدٍ تكوَّمَ على جانِبٍ مِن الطَّرِيق، مُسَجًّى من غير حَرَاكٍ.. عادَ اللينُ يغزو رجلَيَّ، «**هيَّا بنا**»، جذبتُها ومَضَيْنا ننهبُ الأرضَ نهبًا.. أينَ ذهبَ الباقون؟! أتُرَاهم قد ابتَعَدوا؟ أنَلْحق بهم؟ يا لهم من قُسَاة أنانيِّين! الكِبار غادِرُون..

صوتُ حفيف يقترب، أو نقترب نحن منه، كصوت حفيف أوراق الأشجار التي كانت في فناء دارنا غيرَ بعيد.. لم يكُن صوتًا يوحي بالفزع كذاك الصوت الهادر لتلك الغيلان الحديديَّة العملاقة التي مرَّت بنا ليْلَةَ أمس، كان صوتًا قادمًا من الجنَّة، صوتًا يشِي باقتراب الخلاص، صوتًا فيه النَّجاة.. ازداد الصوتُ ارتفاعًا كلَّما اقتربنا، غير أنَّ لحنَه المُطَمْئِن لم يزل ملازمًا له، ولنا..

خطَونا أولى خطواتنا على الرمال قبالة البحر، تلك هي نهاية الطريق، لكلِّ طريق نهاية، ولكُلِّ مسير وقوف، ولا بُدّ.. كان البحر هادئًا، تلاحق أمواجه بعضها في دَعَةٍ وَكَسَلٍ، كان الشاطيء خاليًا، أين ذهب مَن كانوا قبلَنا؟!! أتُرَانا قد فقدنَا أثَرَهم؟! ها هي بقيَّةٌ منهم، على مدِّ البصر، يوشكون على اعتلاء سطح قارب صغير، يجب أن نلحق بهم، إذا أردنا

النجاةَ.. «**هيَّا بنا.. أسرعي.. لنلحقَ بهم**».. كانت أقدامنا الصغيرة تغوص في الرمال، وكأنَّها تُكبِّلنا، نكاد نصل إليهم، ويكادون يبتعدون بمركبِهم.. أشَحْتُ إليهم بذراعِي، «**انتظرونا.. نحن هنا**».. جذبتُ أختي بذراعها، أحثُّها على الإسراع، وهي تبكي، «**لا تتركونا.. خذونا معكم**»، وصلنا إلى حيث كانوا، صافحتْ أقدامُنا آثارَ أقدامهم، تلاقت عيوننا وإياهم، الآن يرَوْنَنا رأي العين، ويسمعوننا مِليءَ الأُذُنِ، ولكن لا حياةَ لمَن تنادي، فقط أشاحوا بوجوههم ومَضَوْا.. الكبار خائنون..

«**إلى أين سنذهب الآن**»؟! سألتني بعينَيْها الدامِعَتَيْن قبل أنْ ينطِق بسؤالها لسانُها.. نظرتُ إلى أقدامنا، كان موجُ البحر الصغير يداعبها، نظرتُ إلى وجهها طويلًا، أريد أنْ أنظر إلى وجهها الملائكي حدَّ الكفاية، «**سنعبر البحر**»، «**ولكن ألَيْس علينا أن نركب قاربًا كما فعل الآخرون**»، «**لا، الكبار فقط هم من يحتاجون إلى قوارب لعبور البحر، أمَّا نحن الصغار فمحمولون على ظهره، الصغار لا يغرقون**»، «**ولِمَ؟**»، «**لأنَّ الله يُحِبُّ الصغار، ونحن نحبُّه**»، قلَّبْتُ نظري بين عينَيْهَا وبين الأفق، حيث تلامس السماءُ موجَ البحر الهاديء، لمْ تعُد تبكي، لمْ تعُد

خائفة، يكاد ماء البحر أمامنا يصير عذبًا من بسمتها البريئة تلك.. «**هيَّا بنا.. لنخبرَ اللهَ بكلِّ شيء**»..

***

وعلى شاطيءٍ بعيد، غريب، وقف شرطيٌّ يسطر في دفتَره كلمات، يغالبُ دمعةً تجاهد لتغادر مقلَتَيْه، تسقط قطراتٌ على دفتره، فتمتزج بما خطَّ قلمُه، ينظر إلى أعلى، السماء لا تبكِي، إنَّها عيناه إذًا.. وثمَّ جسدٌ صغيرٌ مُلْقًى على وجهه على رمال الشاطيء الحانية، ساكنًا مطمئنًّا، وكأنَّه لا يبالي للدنيا وما فيها، جسدٌ قد ترك دنيا الكبار وأوى إلى الله؛ فالكبار قُساةٌ خائنون، والله رحيمٌ.. يُحبُّ الصغار..

تمَّتْ

د. محمد عبد اللطيف

١٧ المُحَرَّم، ١٤٤٢هـ

٤ أيلول، ٢٠٢٠م

حَوْلَ الصُّورة

الصورة المُصاحِبة للقصَّة القصيرة هي من أكثر الصُّوَر شهرةً في العقد الأخير، وهي من الصور التي تقف الإنسانيَّة أمامها في خَجَلٍ وانكِسَار.. الصورة هي للطفل السورِيّ من أصل كُرْدِيّ «آلَان شينو» ذي الثلاثة أعوام، والذي قضَى غَرَقًا صُحبَةَ أخِيه «غالِب» الذي يَكْبُرُه بعامٍ أو عامَيْن، وأُمِّهِ «ريحانة» ذات الخمسَة وثلاثين عامًا..

التُقِطَتْ الصورة بواسطة المُصَوِّر والصُّحُفِيّ التُّركِي «نيلوفير ديمير» في الثاني من سبتمبر لعام ٢٠١٥م، وكانت عائلة «آلان» التي تنحَدِر من مدينة «كوباني/ عين العَرَب» في شمال سورِيًّا، قد تنقَّلَت بين العديد من المُدُنِ في شمال سورِيًّا؛ هرَبًا من الحربِ الأهلِيَّة هناك، ثمّ انتَقَلَتْ إلى تُرْكِيَا، ومِن بعدها إلى «كوبانِي» مُجَدَّدًا في عام ٢٠١٥م. ولكِنَّها لم تلبَث أن عادَت إلى تُرْكِيَا في شهر يونيو من العام نفسِه هربًا مِن هجوم تنظيم «الدَّوْلَة الإسلَامِيَّة» على مدينة «كوباني». ثمَّ حاولَت الأسرة الهجرة إلى جزيرة «كوس» التابعة لليونان، والتي تبعُد مسافة ٤.٥ كم فقط (٣٠

دقيقة) عن شواطيء مدينة «بودروم» التُّركِيَّة.

استَقَلَّ الأبُ «عبد الله» وأسرتُه قاربًا مطَّاطِيًّا لا يَسَع إلَّا لثمانيَة أشخاصٍ، بينما كانوا عِدَّةَ ستَّة عشَرَ شخصًا على مَتْنِه، والذي لم يلبَث أنْ غرق بهم في البحر المُتَوَسَّط قُبَالَة مدينة «بودروم». قال الأبُ الذي نَجَى مِن الغرق - إنْ كانَتْ نجاتُه وغَرَق زوجِه وأولاده تُسَمَّى نجَاةً!!- أنَّهم لم يكونوا يرتدون سُترَات نجاةٍ على القارب، وقال آخرون أنَّهم كانوا يرتدون سُتْرَاتٍ غَيْر ذي فائدة..

اكتَشَفَ جُثَّةَ الطفل «آلان» اثنان من المُواطِنِين الأتراك في السادسة والنصف صباحًا، وفي اليوم التالي الثالث من سبتمبر لعام ٢٠١٥م نُقِلَت جثامِين الأمِّ وطِفلَيْها إلى مدينة «كوباني» لِيُدْفَنُوا هناك..

لَم تَجْر أحداث قِصَّتُنا على وُفْقِ أحداثِ غَرَق الطِّفْلِ «آلان» وذَوِيه، لَمْ يكُن منها شيءٌ قطُّ إلَّا المَشهد الأخير، وما الطِّفْل «آلان» إلَّا أحد أطفال المُسلِمين الذين قَضَوا بشكلٍ أو بآخر نتيجة الطُّغيان وممالأة أهل الكُفْرِ والنفاقِ..